

حول مقال

محمد رشيد رضا

لصاحب الفضيلة الأستاذ حامد محيسن

قرأت بإيمان مقالة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجليل عيسى ، في مجلة الرسالة الدائمة ، في ذكرى عالم ومصلح ، هو السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار رحمه الله؛ ففنت لي ملاحظات أحب أن أسجلها للقراء على صفحات الرسالة . وإن كانت هذه الملاحظات لا تخص الكاتب قدره ، بل إنما تدفنا إلى أن نضاعف شكره .

وأم هذه الملاحظات هي:

أولاً : أخذ الكاتب الأفكار التي دونها في مقالته من كلمة الشيخ الزنكاوني في حفلة تأبين السيد رشيد رضا التي أقيمت بدار الشهبان المسلمين عام ١٩٣٦ ، وكنت حاضرًا بصحبة الأستاذ الأكبر الشيخ الراعي ، وكانت الحفلة برئاسته . وقد نشرت كلمة الشيخ الزنكاوني في الصحف كلها حينذاك ومنها الجهاد (عدد ٢ إبريل عام ١٩٣٦ ميلادية) وهو تحت يدي الآن . وقد ألقاها بالنيابة عنه في الحفلة فضيلة الشيخ محمود شلتوت . وإن شئت فاستمع لهذا الاتفاق الظاهر !

قال الرحوم الشيخ الزنكاوني في أسلوب ساحر أخاذ : « طلاب الشيخ - محمد عبده - جميعاً كانوا يفترون من بحر واحد ، وإن تفاوتت مراتب جهودهم واستعدادهم » . فقال الكاتب : وبالرغم من كثرة المستمعين للشيخ محمد عبده ، وتفاوت درجاتهم في الدكاء والتحصيل ؛ فإن أحداً منهم لم تعمل فيه آثار للشيخ أقوى مما عملت في السيد رشيد ، فكانوا على ضروب وأنواع - ثم أورد حديثاً للبخاري وقال إثر ذلك - كذلك كان تلاميذ الشيخ محمد عبده : منهم من لم ينتفع في نفسه ، لأنه مجذب الطبع ، سيخ التربة ؛ ومنهم من نفع غيره ، فنقل مبادئ الشيخ لغيره ، وإن كان هو لم ينتفع بها ، أو قل انتفاعه ؛ ومنهم من انتفع في نفسه ولم نفعه غيره الخ » . فالفكرة هي الفكرة

ولكن الشيخ الزنكاوني عرضها عرضاً سلبياً ، من حيث أطنب الأستاذ ، وذكر حديث البخاري دون مناسبة ، وقاس أصحاب محمد عبده بأصحاب الرسول الأعظم ، وأخطأ في عده من لم ينتفع بدروس محمد عبده ولم ينفع غيره نوعاً من أنواع تلاميذ الأمام . ولا ندرى معنى تعبيره في هذا التمام بقوله : « لأنه مجذب الطبع سيخ التربة » ؛ ويقول : « ضروب وأنواع »

وقال الزنكاوني : « كان لصاحب المنار منذ عرفته مصر وجود قوى ، وشخصية بارزة ، امتد صوتها إلى الأقطار العربية والأقطار الشرقية ، بل كان لهذا الصوت أثر في بعض الأمم التي ليست شرقية ولا إسلامية الخ » . فقال الكاتب : « أتخذ من المنار منبراً يدوي منه صوته في جميع بقاع الأرض في جاوة وسومطرة والهند والصين شرقاً إلى أوروبا وأمريكا غرباً »

وقال الزنكاوني : « ولما هوجم الأستاذ الإمام في آرائه الدينية والإصلاحية أخذ السيد رشيد يواجه خصوم الشيخ بقلمه ولسانه وينشر في مجلة المنار آراء أستاذه وأتباعه وكان يتلقاها من دروس شيخه ، وما كان يملق عليها بعبارات من عنده تدل على كمال الفهم واستقلال الفكر » . فقال الكاتب : لم يكن هذا التلميذ - السيد رشيد - مسجلاً لأفكار شيخه لحب ، بل كان مع ذلك مناقشاً ومحصلاً وموجهاً . وقد أراد الشيخ أن يبر عن كلمة الزنكاوني : « أتباعه » ، فقال : « موجهاً » ، فأخطأ فهم ما أراد الزنكاوني ، كما أخطأ التمييز عنه . فهل كان السيد رشيد موجهاً لأستاذه ؟ كلا ، أو هل كان موجهاً للجمهور بعد موت أستاذه ؟ كلا ، لأن السبارة الصحيحة عن ذلك أن يقال : « كان ينافس آراء أستاذه ويحصنها ويوجه الجمهور على هداها » مثلاً

وقال الزنكاوني عن السيد رشيد : إنه كان من الأفذاذ الذين يخل التاريخ بالكثير من أمثالهم ، ولعل أكبر شاهد على ذلك أن مهمة السيد رشيد لم يستطع إلى الآن أن يقوم بها فرد أو جماعة على كثرة العلماء والكاتبين . فقال الكاتب : « كل ذلك كان يقوم به وحده ، فحقاً إن السيد محمد رشيد أمة ، وغير ذلك من صنع رجل واحد ، فإنه عندما جاور ربه حاولت هيبات كبيرة وجماعات محترمة أن تخرج للناس مجلة تمد فراغ المنار فلم يستطع

أحد منهم على كثرتهم ». وفي العبارة رغم ذلك قلق واضطراب كبير .

وقال الزنكلاوي : وكان آخر آية فسرها من سورة يوسف ومات على أثر تفسيره لها قوله تعالى : رب قد آتيتني من الملك ألخ . فقال الشيخ عبد الجليل مخاطبا السيد رشيد : ألم يكن من علامات قبولك أن آخر آية من كتاب الله سطررت شرحها بخطك هي قوله تعالى : رب قد آتيتني من الملك ألخ .

ثانيا : ومجور المقالة رمى كبار علماء الأزهر بمحاربة السيد رشيد ومبادئه ، وإن شئت فاستمع قوله : كنت أعلم أن كثيرا من علماء الأزهر خصوصا الكبار منهم كانوا يحيطون السيد رشيد بهالة من الشك في تدبئه ، رغم أنهم لم يجالسوه أو يجتبروا علمه أو حتى يكافؤوا أنفسهم قراءة كتبه ؛ ثم يذكر قصة ثلاثة من كبار علماء الأزهر نحابل كما يقول عليهم حتى ذهب بهم للنداء وحدوثوا صاحبه وحديثهم ، فأنكره البعض وعرفه الآخرون . ويقول الكاتب أيضا ؛ وكان السيد رشيد يحارب في ميادين أخرى علماء جاهلين مقلدين الخ .

أليس في ذلك ظلم للتاريخ ، وجور على العلماء الذين عرفوا السيد رشيدا وأحبوه وشجعوه وأحاطوه بالإكبار ؟ وإن مجالس السيد رشيد لم تخل يوما من العلماء ، كبارهم وصغارهم على السواء . ولا ينسى الكاتب التنويه بنفسه وأنه كان وحده من بين العلماء على صلة معروفة بالسيد رشيد ؛ وإذا كنت أيها الشيخ الجليل كذلك فكيف أنكرت السيد رشيدا على عمر الأيام ، فلم تقف في حفلة تأييده راثيا مع الواقفين من أمثال الزنكلاوي والمدوي والمراوي وعبد الله عفيفي وشهبندر ومحمد لطفي جمعة وغيرهم ، بل ولم تكتب عنه كلمة إلا الآن ؟

ثالثا : وفي المقالة تعبيرات طريقة مثل : ذهب مع الريح ، سار شبيها بشريط تسجيل ، وهي قذائف لا تكافئ صغير النفس إلا أن يرسلها من فمه ، كأن الأحاديث كانت في طبق أمامه يلتقط منها ما يريد ، يحيطونه بهالة من الشك في تدبئه ، هذا العمل الذي سجله السيد رشيد الخ .

رابعا : وفي المقالة أساليب وكلمات غير مستساغة ولا مقبولة لثة أو ذوتا ، مثل قوله : العالم المصلح الذي يمكن الاستفادة منه ،

وصحتها الأفاذة .

وقوله : أذكر في روح الثورة ، وكررها بالزاي أيضا فقال : بجرأة وشجاعة أذكرهما النبي والتشريد . والكاتب يعلم أنه يقال : « أذكر النار : أشعلها ، وأذكر الله المال : أصلحه وطهره ، والمعنى الأول هو المناسب هنا فكان الأولى كتابتهما بالذال لا بالزاي .

ومثل قوله : ينفخ فيهم من روح اليقظة ما فتح عيوننا عميا ؛ وما هنا مفعول ، ونفخ لا تعدى بمد الجار والمجرور إلى مفعول ، يقال : نفخ في النار ونفخها ، ولا يقال : نفخ في النار ما جعلها تضيء في البيت مثلا ، وإن كان يقال : مما جعلها تضيء . ويقول في كبار علماء الأزهر الذين احتال عليهم حتى يلتقي الجمعان ؛ والقارئ يعرف إذا كانت تصح هنا هذه الكرامة أولا تصح ، وليرشدنا الشيخ الجليل إلى معنى كلمة الجمعين هنا . ويقول : أكتفى بذكر حادثة وقعت لي أنا شخصيا ، وهو تعبير عامي مهذول .

ويقول في الأفتاني : فصار ينفخ فيهم من روح اليقظة ما فتح عيوننا عميا وأذانا صمما ، مما اعتبره الباحثون عود نقاب أشعل به نارا على المستمعين . والأسلوب يقتضى أن يقال : أشعلت به النار ، ببناء الفعل للمفعول .

خامسا : وفي المقالة أخطاء تاريخية مثل قوله : « وهذا — أي الرمي بالزندقة — سلاح قديم حورب به الأنبياء والمصلحون ألم يقل ورقة بن نوفل للنبي (ص) : ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا أودى ؛ وكذلك ذاق البخاري والغزالي ». فهل رمى محمد (ص) بالزندقة ، وهل رمى بها الأنبياء قبله ، وهل رمى بها البخاري والغزالي ؟ أليس ذلك إفتراء على التاريخ ؟

ويقول : كان السيد رشيد يحارب سلاطين جاثرين ، وحاكين ظالمين . والتاريخ يبيننا أن السيد رشيد وقف حياته على نشر آراء محمد عبده وأفكاره في الإصلاح .

ويقول : لم يعتمد — السيد رشيد — على ملك ولا حكومة أو جمعية أو حزب . فهل نسي الكاتب اعتراز السيد رشيد بمطاف الذنور له الملك فؤاد عليه وأثر ذلك في نفسه ؟

سادسا : ولا أنسى إن أقول أن نصف المقالة أحاديث شتى عن ما عدا ذكرى السيد رشيد رضا ، وكان من الواجب ترك